علم المعنى النحوي وبلاغة البنية العربية - دراسة في الوظائف والخصائص

اعداد
د/ عزيز كعواش
قسم الآداب واللغة العربية – جامعة بسكرة - الجزائر

الاستلام : ٢٠١٩/٥/٢٥ القبول : ٢٠١٩/٦/٢٠

المستخلص:
يتعلق المعنى النحوية بالمهام والوظائف والأدوار التي تقوم بها الوحدات اللغوية داخل بنية النص، من حيث تصنيفها وإيضاح طرائق تركيبها وبيان نوع العلاقات التي تربط عناصر بنائها، وتحديد الدرجات الوظيفية التي تشغلها مكونات هذه العناصر، وطبيعة النموذج التركيبي لكل نوع من أنواع الجملة. أي أن الدلالة النحوية هي الدلالة المستنبطة من النحو وتراكيبه ودور كل عنصر في الجملة، وهذا ما توصل إليه الدرس اللساني الحديث في إطار بحوث السيمانتيك وأدركه علماء العربية من خلال تطبيقاهم النحوية وتعليلاتهم التفسيرية وتأويلاتهم البلاغية للنص اللغوي العربي المدون أو المنطوق وخاصة مع علماء القرن الرابع الهجري.
الكلمات المفتاحية: المعنى النحوي، الدلالة النحوية، العلاقات النحوية، الوظائف النحوية.

Abstract :
The grammatical meaning relates to the tasks, functions and roles played by the linguistic units within the structure of the text, in terms of classifying and clarifying the methods of their composition, indicating the type of relations between the elements of their structure, determining the functional grades of the components of these elements and the nature of the structural model for each type of sentence. That is, the grammatical significance is the significance derived from the grammar and its composition and the role of each element in the sentence, and this is what the modern linguistic lesson in the framework of the research of the semantic and realized by the Arab scholars through

their grammatical application and explanatory explanations and rhetorical interpretations of the text of the written or operative Arabic language, The grammatical meaning relates to the tasks, functions and roles played by the linguistic units within the structure of the text, in terms of classifying and clarifying the methods of their composition, indicating the type of relations between the elements of their structure, determining the functional grades of the components of these elements and the nature of the structural model for each type of sentence. That is, the grammatical significance is the significance derived from the grammar and its composition and the role of each element in the sentence, and this is what the modern linguistic lesson in the framework of the research of the semantic and realized by the Arab scholars through their grammatical application and explanatory explanations and rhetorical interpretations of the text of the written or operative Arabic language, .

Keywords: grammatical meaning, grammatical significance, grammatical relations, grammatical functions.

مقدمة :

أوغل النحويون العرب بالدرجة الأولى في موضوع الدلالة النحوية إيغالا شديدا، و لم تحظ قضية بالبحث والاهتمام في النحو قديما وحديثا مثل ما حظيت به قضية الإعراب والعلامة الإعرابية، يدل على ذلك كثرة المؤلفات والدراسات الحديثة حول هذه القضية بصور مختلفة ومن زوايا متعددة.[١]

ولقد بات جليا أن معنى النحو في اصطلاح النحويين العرب هو العلم الذي يدرس جانبين اثنين؛ جانب تركيب الجملة العربية، وجانب الإعراب.[٢] وبالإضافة إلى غاية النحو الأولى الممثلة في صلاح الألسنة، فإن للنحو غاية ثانية أساسية هي الإسهام في كشف المعنى، حيث تجعل من الأساس النحوي شرطا لا غنى عنه لتفسير الجملة وفهمها وإدراك عناصر الجمال والبلاغة فيها. وبهذه الصورة صار النحو شديد الصلة ووثيق العلاقة بعلم آخر من علوم البلاغة وهو علم المعاني، من منطلق أن مجال دراسة كل منهما مشترك وهو الجملة.[٣]

إن إبراز وظائف الكلمات ودورها وعلاقاتها وتركيبها تستنتج كلها من الدلالة النحوية التي يعرفها اللغويون بأنها تلك التي تستمد من نظام الجملة وترتيبها ترتيبا خاصا.[٤] فالدلالة النحوية مرتبطة بتغيير مواقع الكلمات في الجملة، إذ تغيُّر الوظيفة

النحوية يؤدي إلى تغير في المعنى. فجملة الرجل تعاتب المرأة تختلف في المعنى عن جملة المرأة تعاتب الرجل. وهذا التغير ناشئ عن تغيير مواقع الكلمات، أي تغيير الوظيفة النحوية[٥] بتغير الدلالة النحوية، حيث نظام الجملة الذي لو اختل لغمض المعنى.[٦]

ومن الطبيعي أن الإعراب والعلامة الإعرابية عمل نحوي، ولكن لن تتضح لنا إمكانية التفريق بين الفاعل والمفعول به والحال والمبتدأ والخبر إلا بمعرفة دلالة كل جزئية من الكلمة. وقد أوضح اللغوي الأمريكي ***فريز*** أن المعنى البنيوي يتناول ثلاثة أمور:

- **دلالة الأدوات؛** مثل حروف العطف و حروف الجر ...إلخ.
- **دلالة الوظائف النحوية؛** مثل الفاعلية والمفعولية.
- **دلالة نمط الجملة؛** مثل الدلالة في الجملة الشرطية.[٧]

كما أن الكلمة تكتسب تحديدا وتبرز جزءا من الحياة الاجتماعية والفكرية عندما تحل في موقع نحوي معين في التركيب الإسنادي وعلاقته الوظيفية، كالفاعلية والمفعولية والحالية والنعتية والإضافة والتمييز والظرفية. ويمثل لذلك ***فايز الداية*** بقوله " لو قلنا مثلا: خاطبت الطحان في شأن تحسين عمله وزيادة مقدار إنتاجه، فكلمة الطحان في موقع المفعول به تبرز في جهة من العلاقة الاجتماعية هي موقع المحاسبة والمسؤولية".[٨]

المعنى النحوي ووظائف اللغة

يذهب ***أحمد عمر مختار*** إلى وجوب مراعاة الجانب النحوي أو الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل الجملة، ولو لم يؤدي تغير مكان الكلمات في الجملة - تغير الوظيفة النحوية - إلى تغيير المعنى ما كان هناك فرق بين قولك طارد الكلب القط وطارد القط الكلب.[٩] كذلك قد تتفق كلمات الجمل المتشابهة ولكن يكون الاختلاف في توزيع المعلومات القديمة "الموضوع" والجديدة "المحمول"، ومثال ذلك:[١٠]

- الثعلب السريع البني كاد يقتنص الأرنب.
- الثعلب البني الذي كاد يقتنص الأرنب كان سريعا.
- الثعلب السريع كاد يقتنص الأرنب كان بنيا.

إن معرفة جوانب الدلالة في إطار النحو هو الذي عرفه ***التهانوي*** بقوله " المعنى لغة المقصود سواء قصد أو لا، فهو إما مصدر بمعنى المفعول، أو مخفف معنى اسم مفعول كمرمى، نقل في اصطلاح النحاة إلى ما يقصد بشيء نقل العام إلى الخاص".[١١] فالمقصود بالمعنى النحوي أي وظيفة الكلمة في الجملة كالفاعلية والمفعولية والإضافة.

وما يوضح هذه العناصر هو مفهوم الإعراب الذي عرفه ***ابن جني*** بقوله " هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيد أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول. ولو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه ".[١٢] فالإشارة المهمة في كلام ابن جني أنه يجعل الإعراب

كاشفا عن " المعاني " والمراد بها هنا المعاني النحوية، وقد أكد هذا بالمثالين اللذين ذكرهما.

أما علم المعنى النحوي عند ***عبد القاهر الجرجاني*** فهو مرتبط بالنظم، يقول ***عبد السلام السيد حامد*** "ومن الجدير بالذكر أن علم الدلالة النحوي هذا يلتقي في كثير من جوانبه مع نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، إذ كلاهما يجري - في الأساس- وراء تجلية المعنى ودراسة مشكلاته عن طريق النظر في النحو وقواعده ".[١٣] ويؤكد ***أحمد نعيم الكراعين*** أن عبد القاهر الجرجاني أسبق من المحدثين في دراسة الدلالة النحوية، و" أوضح من هؤلاء ".[١٤] ثم يسوق قول الجرجاني " وإذا كان هذا كذلك، فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون الكلم إخبارا أو أمر ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة ".[١٥] كما يؤكد على أهمية الدلالة النحوية بذكر قول ***ابن قيم الجوزيه*** " فإن اللفظ قبل العقد والتركيب بمنزلة الأصوات التي ينعق بها ولا تفيد شيئا وإنما بعد تركيبها.[١٦]

وما تتحدث به النظريات الحديثة حول البنية السطحية والبنية العميقة هو نفسه ما قال به ***عبد القاهر الجرجاني*** قديما و" قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها وأن المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه المقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ".[١٧] إن تصور البنية العميقة الذي سماه عبد القاهر الجرجاني " النظم" وتغير دلالة التركيب في اللغات الأوربية تبعا لتغير مواقع الألفاظ مع بقائها على نفس الصيغة والصورة الصوتية هو أكثر ظهورا منها في العربية. ونلاحظ تغير المعنى بتغير مواقع الكلمات في الجملة الآتية:

1- My Wife wants a new dog.

2- My new Wife wants a dog.

3- My new dog wants a Wife.

وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الدلالة النحوية مستوحاة من تركيب الجملة والبنى الداخلية لها، لذلك وجب أن تحمل كل العناصر الصوتية والمورفيمات التي يقوم بوظيفة معينة قواعديا أبعادا دلالية متباينة، وسنوضح بعضا منها ودورها فيما يلي:

١- تاء التأنيث الساكنة (علاقة الفعل الماضي): مخصصة لهذه الوظيفة فقط

٢- التاء في أول المضارع = دلالة الفاعلية.

٣- نون النسوة = + ضمير
+ اسم
+ تدل على معنى التأنيث

+ تدل على الفاعل
+ تدل على الغائبات
+ تدل على الحاضرات « والوالدات يرضعن أولادهن »[١٨]

نجحت الفاطمات الفاطمات نجحن.[١٩] فنون النسوة لها دلالة التأنيث سواء أضيفت إلى اسم أو ضمير.

٤- واو الجماعة = + الدلالة على الفاعل
+ الدلالة على المذكر

٥- ألف الإثنين= + تدل على الفاعل في المثنى.
+ تدل على الرفع

٦- الواو والنون= + تدل على الجمع في جمع المذكر السالم
+ تدل على الرفع في جمع المذكر السالم

لقد فرق النحويون بين دلالة تاء التأنيث ونون النسوة وجعلوا لكل منهما دلالة خاصة. وكذلك ميزوا بين أمور عديدة واصطلحوا عليها بمصطلحات تعارفوها مثل التعددية والتعلق. كما فرقوا بين المعاني التي تنتج عن إضافة الحروف الجر إلى فعل ما، من مثل قولنا: رغبت فيه أي أحببته، ورغبت عنه أي تركته. فالفعل نفسه لكن حرف الجر في كل مرة يضفي له معنى جديدا. إن الدلالة النحوية بهذا المعنى هي البحث عن الدور الوظيفي للوحدات اللغوية داخل التراكيب.[٢٠] فالبينة اللغوية لها معانيها، ذلك أن غاية المتكلم من إنشاء العلاقات بين المفردات هي أن يحول الملفوظ من مفردات متعاقبة إلى كلام مفيد. ومعاني البنية اللغوية هي ما يسميه ***الجرجاني*** "معاني النحو" وهي المعاني التي تستفاد من ترتيب الكلام واختيار أقسامه التشكيلية.[٢١]

أقسام الدلالة النحوية

تقسم الدلالة النحوية عند ***ابن جني*** إلى ثلاثة أقسام فهي عنده لفظية وصناعية ومعنوية[٢٢]، يقول ابن جني" اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتد مراعى مؤثر، إلا أنها في القوة والضعف على ثلاث مراتب: وأقواهن الدلالة اللفظية ثم تليها الصناعية ثم تليها المعنوية".[٢٣] وقد اختار ***ابن جني*** في تطبيقه لهذه الدلالات الفعل (قام) فيقول " فمنه جميع الأفعال، ففي كل واحد منها الأدلة الثلاثة. ألا ترى إلى (قام)، ودلالة لفظه على مصدره، ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه. وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية، من قبل أنها وإن لم تكن لفظا فإنها صورة يحملها اللفظ ويخرج عليها ويستقر على المثال المعتزم بها، فلما كانت كذلك لحقت بحكمه وجرت مجرى اللفظ المنطوق به، فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة، وأما المعنى فإنما دلالته لاحقة بعلوم الاستدلال، وليست في حيز الضروريات.[٢٤]

ويوضح ***ابن جني*** تقسيمه هذا للدلالة النحوية حيث يرى أن للفعل (قام) ثلاث دلالات:

١- **دلالة لفظية**: وهي المصدر أو الحدث Action وهو القيام، وإنما تستقى هذه الدلالة من اللفظ نفسه، لذلك كانت أقوى الدلالات.

٢- **دلالة صناعية**: وهي مستقاة من تصريف الفعل، فهي دلالة مؤقتة، ونراها هنا زمنا ماضيا، ونراها في يقوم زمننا مضارعا، وسميت صناعية لأن التصريف من صنع المتكلم. وهي تشترك في القوة مع الدلالة اللفظية لأنها صورة (صيغة) يحملها اللفظ، ولكنها ليست في قوتها.

٣- **دلالة معنوية:** وذلك أن (قام) فعل، والفعل لا يحدث ذاتيا، بل لا بد له من فاعل، ومن ثم فإننا عندما نقول (قام) فإنما ندل بذلك على أن هناك فاعلا قام بهذا الفعل. وهذه الدلالة ضعيفة، لأنها غير ملفوظة، أي غير مشاهدة بل هي مستدل عليها.

كما يستعمل ***ابن جني*** لتوضيح هذه الدلالات مثلا آخر وهو لفظة (مرقاة)، فدلالته اللفظية الرقي وهو الحدث أي الصعود، ودلالته الصناعية أنه اسم آلة، ودلالته المعنوية أن اسم الآلة لابد لإنسان أن يستعمله وإلا ما أصبح اسم آلة، فدل بذلك على من يرقى، أي يصعد.[٢٥]

وفي سياق بحث ابن جني عن أنواع الدلالات نجده يؤكد على أن الدلالة النحوية هي أهم من الدلالتين الصوتية والصرفية، ذلك لأنهما يمثلان جزءا منها " فنرى أن ابن جني قد نظر إلى اللغة من خلال الدلالة النحوية التي تتشكل عنده من الصوت والصيغة والمعنى".[٢٦]

ويوضح ***فندريس*** هذا المعنى ذاته بقوله " فالكلمة لا توجد منعزلة في الذهن إطلاقا، بل تكون جزءا من مجموعة ذات امتداد ما نستعير منها قيمتها".[٢٧] فالمجموعة هي الأصوات والأبنية الصرفية "وذات امتداد ما" هو التركيب الذي يعطينا معنى قيمة. ويذهب ***تشومسكي*** إلى القول بجمع الصوت والمعنى بطريقة خاصة،[٢٨] أي أن الدلالة النحوية تشمل الصوت والمعنى ليصل المعنى تاما للمتلقي. ولأجل ذلك كله يرى ***أولمان*** " أننا لا نتكلم كلمات مفردة ولكنا نكون منها تراكيب وعبارات وجملا"[٢٩]. وحسبما يقول ***كاتز katz*** فإن " معنى الجملة لا يتأتي من معاني مفرداتها المعجمية فقط ولكن من العلاقات النحوية القائمة بين هذه المواد"[٣٠].

العوامل المؤثرة في وضوح الدلالة النحوية

يرى ابراهيم أنيس أنه " من الضروري ترتيب الجملة العربية ترتيبا خاصا لكي يسهل فهم المعنى المراد منها"[٣١]. فالدلالة النحوية مرتبطة ومتغيرة بتغير مواقع الكلمات في الجملة. لأن تغيير الوظيفة النحوية يؤدي لا محالة إلى تغير المعنى. ففي نحو قوله تعالى :"ووصى بها ابراهيم بنيه يعقوب"[٣٢] و في قراءة أخرى بزيادة الواو "و يعقوب"، نجد في الأولى أوصى يعقوب بنيه كما فعل إبراهيم عليهما السلام، أما في الثانية فكان

يعقوب ممن أوصاهم إبراهيم. فالعلامة الإعرابية تعد رمزا مهما من رموز المعنى ودالة من دواله. هذا فضلا عن الدلالات النحوية الأخرى من تقديم وتأخير، ووصل وقطع، وذكر وحذف. فالدلالات تختلف باختلاف موقع وترتيب الجمل أو الكلمات أو الحركة الإعرابية التي تحملها الكلمات، وهنا تكمن الدلالة النحوية. ولأهمية هذه العوامل في توجيه المعنى النحوي سنتعرض بالوصف والتحليل لأهم عاملين مؤثرين على الإطلاق في بروز الدلالة النحوية ووضوحها في اللغة العربية، وهما العلامة الإعرابية والرتبة.

١- العلامة الإعرابية

إن ما تتميز به اللغة العربية عن غيرها من اللغات وجود الحركات بها، والحركات هي أبعاض الحروف " ومعنى هذا أن الحركة إنما استعملت مكان حرف هجائي من حروف اللين والحركات، وبهذا المعنى فهي تدخل في أعداد الرموز، وهي لا تدخل صلب الكتابة الإملائية ولذلك يمكن الاستغناء عنها متى أمن اللبس ".[٣٣]

ويرى كتابنا أن الحركات الإعرابية اقتصاد في اللغة العربية. ويكفي للتدليل على أن الحركات مظهر اقتصادي في اللغة العربية أن تكتب هذا الاسم " **كُتُبٌ** " باللغة العربية، فلا نرسم إلا ثلاثة أخرى عليها رموز بسيطة ففيها اقتصاد في الوقت والجهد والحيز المكاني. ولنكتب هذا الاسم نفسه بحروف لاتينية، وانظر كم يصير هنا من حروف koutouboun".[٣٤] ويشير ابن جني إلى الحركات الإعرابية ودورها فـ " الحركات أبعاض الحروف، وإن الفتحة هي بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو، فإنه يتبين لنا ما تنطوي عليه رموز الحركات من اختصار في الكتابة الإملائية ".[٣٥]

ونظرا لأهمية العلامة الإعرابية فقد كانت مدار بحث علماء العربية وأوفر حظ من اهتمام النحاة، فجعلوا الإعراب نظرية كاملة سموها نظرية العامل، وتكلموا فيه عن الحركات ودلالتها والحروف ونيابتها عن الحركات.[٣٦] ويرى ***عبد السلام السيد حامد*** أن اهتمام الباحثين بالعلامة الإعرابية يرجع إلى:

أ- أن العلامة الإعرابية قرينة مهمة في القرائن التي تعين على تحديد المعنى الوظيفي للكلمة في الجملة وهذا غاية التحليل النحوي.

ب- كون هذه القرينة لفظية - رغم تضافر القرائن كلها واستوائها لفظية ومعنوية - يجعل دلالتها أكثر وضوحا أو على الأقل أكثر جذبا للانتباه إليها عن غيرها في كثير من الأحيان.

ج- مبالغة النحاة الشديدة في الاهتمام بهذه العلامة ووظيفتها حتى جعلوا الإعراب في كثير من نصوصهم مرادف لعلم النحو.[٣٧]

إن العلامة الإعرابية أو المظاهر الإعرابية بأنواعها في العربية يعبر عنها بشكل رمزي مختصر جدا وهي على ثلاثة أشكال؛ فعلامة النصب فتحة دالة على غرض النصب (كالمفعولية) أو التمييز أو غيرهما، وعلامة الرفع ضمة دالة على المسند إليه

(كالفاعل أو المبتدأ)، وعلامة الجرّ كسرة دالة على الإضافة بنوعيها (بالحرف أو بدونه). وقد ينوب الحرف عن الحركة كما في المثنى والجمع أو الأسماء الخمسة.[٣٨]

كما أن العلامة الإعرابية مظهر أو أثر شكلي له علاقة قوية بالمعنى لذلك فهي تعد من أهم الجوانب في قضية اللفظ والمعنى. وعلاقة العلامة الإعرابية بالمعنى لها جانبان: [٣٩]

الجانب الأول: علاقة الاستدلال وتأثير تنطلق من العلامة وذلك حينما تميز بين المعاني النحوية المختلفة، كالفاعلية والمفعولية والابتداء والخبر وما شابهها. وتكون محددة سلفا لأنها مقروءة أو مسموعة، وهي مؤثرة بما تحدد من معنى. ويوجد هذا النوع من العلاقة في مستوى الكلام المضبوط المقروء أو المسموع، كأن نقرأ أو نسمع هذه الجملة:ضرب محمد عليا.

الجانب الثاني: يتمثل في تأثير تحديد نوع العلامة بالمعنى، أي أن المعنى هنا هو الذي يؤثر في العلامة فيجعلها مستقرة في شكل معين كالضم مثلا. ويتحقق هذا الجانب في مستويين:

مستوى الكلام غير المضبوط، كأن نقرأ في نص ما هذه الجملة " أحيا اليائس الأمل " من غير ضبط. فنفهم المعنى وندرك حقيقة العلاقة بين "اليائس" و"الأمل"، ويترتب على هذا أن ننصب الأول لأنه مفعول ونرفع الثاني لأنه فاعل. أما المستوى الثاني لهذا الجانب من الممكن أن يوجد في التنظير لربط العلامات بدلالات معينة ومحاولة وضع ضوابط دلالية لذلك، ومن ثم يكون الإعراب هنا متأثرا والمؤثر في تحديده هو المعنى.

كما يلاحظ أن " العلامة الإعرابية قد تكون القرينة الواحدة التي تفسر الإسناد".[٤٠] نحو قوله تعالى " إنما يخشى الله من عباده العلماء"،[٤١] وقوله " وإذا يتلى ابراهيم ربه بكلمات "[٤٢]. وللإعراب دور كبير في الفهم، وقد يساعد الشكل الإملائي على إيضاح هذا الفهم وتمكينه من ذلك. وهو ما يفهم من رواية الحديث "لا يقتل قرشي صبرا بعد اليوم" بجزم (يقتلْ" مرة و يرفعه مرة أخرى (يقتُلُ) القرشي، فمن رواه بالجزم أوجب ظاهرة الكلام ألا يقتل القرشي إن ارتد ولا يقتص منه - إن قتل- ومن رواه بالرفع انصرف الفهم إلى الإخبار عن قريش، أنه لا يرتد أحد منهم عن الإسلام فيستحق القتل، وبين الروايتين فرق في المعنى قد يتوجب عن ذلك حكم شرعي ... فأغنت الحركة عن كل تفصيل في المعنى وفي ذلك اقتصاد إملائي كبير.[٤٣]

كذلك يفهم المعنى من خلال الحركة الإعرابية؛ فمثلا لو قال قائل: فتح باب المسجد الجديد. لبدا للسامع أن للمسجد بابا جديدا قد فتح، ولو أنه جر" الجديد " لبدا أن هناك مسجدا جديد فتح بابه، وفي هذا المضمار، مضمار الدلالة النحوية ووظيفتها في تقديم معنى مزيد. يقول ***الجرجاني*** " ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها،

وأن الأغراض كامنة فيه حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه".[٤٤]

٢- الرتبـــة

إن المحتوى الدلالي لقول أو جملة ما لا يقتصر فقط على مجموع دلالات الكلمات التي يحتوي عليها هذا القول، ذلك أن هناك ظواهر تركيبية بوجه خاص لها أثر في توجيه المعنى. فالرتبة مثلا قد تتوفر على معان عدة، ويمكننا ملاحظة ذلك في الجمل التالية:

أ- قتل الصياد الدب le chasseur tue l'ours

ب- قتل الدب الصياد l'ours tue le chasseur

أ-// c'est un grand homme

ب-// c'est un homme grand

إن هذه الجمل تتكون من نفس الوحدات غير أن دلالتها مختلفة.[٤٥]

إن للجملة العربية هندسة خاصة تحتم ترتيبا خاصا وفق قواعد اللغة المعمول بها، وإذا اختلفت هذه الهندسة وكان هذا الاختلاف مخلا بقواعد اللغة فإن السامع قد يضل عن مقاصد الكلام. فلو قال قائل " ضرب موسى عيسى " لا يقتضي هذا التركيب الجملي أن تكون الدلالة المستفادة منه أن "موسى " الفاعل ، و"عيسى" المفعول به[٤٦]. وقد أكد بشدة ***إبراهيم أنيس*** في كتابه دلالة الألفاظ هذا الرأي حول أهمية الترتيب في وضوح المعنى بقوله " يحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيبا خاصا لو اختل أصبح من العسير أن يفهم المراد منها".[٤٧] ويوضح رأيه أكثر بمثال سبق وأن ذكره مع اختلال في ترتيبه مما ينتج عنه اختلال في المعنى فيقول " تصور مثلا أن جملتنا السابقة أصبحت - لا تصدقه في وسط الصحراء فهو هل يعقل في ثوان النفط كذاب العين تنضخ- ".[٤٨]

يتضح لنا من هذا المثال أن الترتيب عامل مهم جدا في ظهور المعنى لأن للكلمات علاقة وثيقة فيما بينها من خلال ترتيبها يتضح المعنى، فالرتبة قرينة محفوظة يتضح بها المعنى و" تكون الرتبة المحفوظة قرينة لفظية تحدد معنى الأبواب المرتبة بحسبها ومن الرتب المحفوظة في التركيب العربي أن يتقدم الموصول على الصلة، والموصوف على الصفة ويتأخر البيان عن المبين والمعطوف بالنسق عن المعطوف عليه والتوكيد عن المؤكد... وتقوم الرتبة في كل قرينة من القرائن المتظافرة على تعيين المعنى".[٤٩]

أما عن الرتب غير المحفوظة فيقول ***تمام حسان*** " ومن الرتب غير محفوظة في النحو رتبة المبتدأ والخبر، ورتبة الفاعل والمفعول به، ورتبة الضمير والمرجع ، ورتبة الفاعل".[٥٠] إن الخبر يتقدم أحيانا على المبتدأ كما يقول ***ابن مالك***:[٥١]

ونحو عندي درهم ولي طر ملتزم فيه تقدم الخبر

كذا إذا عاد عليه مضمر مما به عنه مبنيا يخبر

كذا إذا يستوجب التصديرا كأين من علمته نصيرا
وخبر المحصور قدم أبدا كما لنا إلا ابتاع أحمدا

ويتضح مما سبق ذكره أن:

١- الرتبة قرينة لفظية وعلاقة بين جزئين مرتبين من أجزاء السياق بدل موقع كل منهما من الآخر على معناه.
٢- الرتبة أكثر ورودا مع المبنيات منها مع المعربات، وأن ورودها مع الأدوات والظروف من بين المبنيات أكثر اطرادا منه مع غيرها.
٣- الرتبة بكونها قرينة لفظية تخضع لمطالب أمن اللبس، وقد يؤدي ذلك إلى أن تنعكس الرتبة بين الجزئين المرتبين بها، وإذا كانت الرتبة وعكسها مناط معينين يتوقف أحدهما على الآخر على عكسها مثلا:

- ما أمر جاء بك ← و أمر ما جاء بك
- قـــام زيد ← زيــد قــام
- هذا الفارس شجاع ← الفارس هذا شجاع[٥٢]

فمن خلال دراسة العلامة الإعرابية والرتبة ودورهما في إبراز المعنى يتأكد لنا أن هناك علاقة وطيدة بين علم الدلالة وعلم النحو ذلك أنه بتوحيدهما معا تستنبط الدلالة النحوية.

علم المعنى النحوي والسياق الدلالي

تحتل دراسة البلاغيين اليوم قدرا كبير من الاهتمام من المنشغلين بعلم الدلالة، ويمثل علم المعاني فيها ركنا أساسيا في علم المعنى بمعناه الحديث. بل إنّ من الدارسين من خصص لهذه الدراسة مستوى معينا من هذا العلم سماه **علم المعنى النحوي** في مقابل **علم المعنى المعجمي** الخاص بدراسة المعنى على مستوى الكلمة المفردة. لأنّ دراسة الدلالة علة مستوى الجملة أو التراكيب على نحو ما فعل العرب في هذا العلم وخصوصا ما ساقه عبد القاهر الجرجاني عند مناقشته لفكرة النظم، فكان رائدا في مجال علم الدلالة حتى إننا لنستطيع ربط عمله بما يجري في الدرس اللغوي الحديث في هذا الحقل.

وليس يفوتنا في هذا المقام أنّ نشير إلى أنّ علماء البلاغة العربية على وجه الخصوص تناولوا نقطتين أُخريين لهما ارتباط بعلم المعنى، أولاهما قضية التنافر والتلاؤم في الحروف المكونة للكلمة وأنساق هذا التأليف مع المعنى حسنا وقبيحا. الثانية محاولة العمل على ربط أصوات الكلمات بمعانيها أو ما يعرف حديثا بمحاكاة الأصوات، أي تأليف الكلمات من الأصوات توحي معانيها أو تعبر عن الأحداث المشار إليها بهذه الكلمات. وهذه النقطة الثانية تكون موضوعا دراسيا ذا أهمية خاصة عند بعض الدارسين في علم المعنى والنقد الأدبي على سواء.

وليس يغيب عن بالنا أيضا أن البحث في هذا العلم العربي قد اتسم بسمتين لا يأخذ بهما البحث المعاصر في هذا الميدان:

السمة الأولى: تبدو فيما سار عليه علماء البلاغة العربية، باستثناء ***الجرجاني*** ومن لف لفه، من تصنيف أنماط التراكيب على أسس منطقية وقواعد عقلية تجنح إلى الصعوبة والتعقيد، حتى لتجد نفسك في حاجة إلى بليغ أديب من المناطقة يفسر لك أعمالهم وأفكارهم. وذلك لأنّ غالبية البلاغيين العرب انصرفوا في معظم أعمالهم التطبيقية إلى المناقشات اللفظية التي تتعلق بأنماط الجمل وصنوفها، مهملين بذلك الهدف الاسمي وهو محاولة الكشف عن المعاني المختلفة التي يصير إليها الأمر نتيجة اختلاف قواعد النحو وأحكامه من تقديم وتأخير أو زيادة أو نقص في الجملة أو العبارة.

أما السمة الثانية: وتتمثل في أنّ دراسة علم المعاني عندهم كانت ذات هدف خاص يسعون نحو تحقيقه، ونعني بهذا الهدف الجري وراء الكشف عن تلك القوانين التي تضمن الجودة والسمو والتعبير والارتفاع بالكلام عن مستوى كلام العامة أو مستوى الصحة المطلقة التي تخلو- في نظرهم – من المزية والفضل. أمّا علم الدلالة الحديث فيعني بالتراكيب وما تتضمنه من مشكلات لغوية خاصة بالنظم وقواعده دون التفريق بين مستوى وآخر، ودون قصر الدراسة على نمط من الأسلوب أو التعبير أو الاكتفاء به، فوظيفة علم الدلالة الحديث وظيفة عامة تعنى بالكلام الإنساني على اختلاف ضروبه ومستوياته.

على أنّ هذه السمات في دراسات المعنى عند العرب يمكن قبولها إذا أخذنا في الحسبان غزارة المادة التي أتوا بها في هذا الباب، وتنوع المسائل والقضايا التي حفلت بها آثارهم وأعمالهم الجليلة، كما يحمد لهم اهتمامهم بالجيد من الكلام في إطار مقامه وظروف حاله.

علم الدلالة النحوي ونظم[٥٣] اللغة في العربية:

أثّر القرآن الكريم بنظمه وتأليفه العجيب وروائع التناسق بين آياته في توجيه الحس البلاغي لدى العرب، وبدأ معه الاهتمام بمخارج الحروف والألفاظ وعلاقتها بالمعنى وما تنتظمه من جمال معجز. كما نمى الحوار وكثرت الخصومات حول وجوه إعجاز القرآن البلاغية ومعانيه الدلالية وخاصة حول علاقة اللفظ بالمعنى وموطن الدلالة وقيمتها في النظم القرآني. وقد تمخض عن هذه المساءلات بعد ذلك فكرة النظم التي أقبل على دراسة وكشف ملامحها عدد من المنشغلين بفروع علم اللغة وعلى رأسهم **عبد القاهر الجرجاني**. كما نجد أيضا ***سيبويه*** قد تعرض إلى هذه النظرية بالنظر إلى المعاني الدلالية والبلاغية ولكنه لم يشير إلى مصطلح النظم. و***الجاحظ*** أيضا أشار إلى جانب من جوانب النظم في حديثه عن"حق البلاغة في إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم".

وتقف الدراسات الدلالية الحديثة اليوم على نتائج في علم المعنى نالت استحسان المعاصرين اللسانيين لما أظهرته من قطبية النظم في معنى الجملة ودوره في السياق الدلالي. وإذا ما عدنا إلى تراثنا العربي وأمعنا النظر في الجهود الدلالية لعلماء العرب من النحويين والبلاغيين واللغويين عامة لانتهينا إلى كثير من الآراء والنظريات التي تتفق مع معطيات المنهج الدلالي الحديث، و لاسيما ما نادت به نظرية ***تشومسكي*** التوليدية التحويلية التي تقترب من نتائج جهودنا العربية في المعنى كثيرا، حتى قيل إن نظرية ***تشومسكي*** صورة نموذجية للنحو العربي، خاصة وأنه درس الأجرومية والنحو العربي؟.

خذ مثلا **الجملة الأصولية** في كتاب ***سيبويه***، ففي باب **الاستقامة من الكلام والإحالة** جاء :« فالكلام منه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب ».[٥٤] يشير ***سيبويه*** بذلك إلى أنواع الجمل لكنه لا يقبل منها سوى واحدة هي الجملة الأصولية التي تكون صحيحة نحويا ودلاليا، لأنه « يفكر ضمنيا في التعليق الإسنادي الذي من شأنه أن ينتج جملة أصولية ».[٥٥] والمنهج الذي اعتمده سيبويه لتوضيح ذلك دقيق وشامل استنفذ من خلاله كل الاحتمالات الممكنة مع الجمل ليقبل الأصح منها شكلا ومعنى، ممثلا في الجملة الأصولية التي تقابل عنده الكلام المستقيم الحسن، وأنه « الكلام العربي السليم الصحيح الذي يراعي في تركيبه الأصول العربية، أي الكلام العربي الجيد والمستقيم ».[٥٦]

أما باقي الجمل كالمستقيم الكذب فحتى وإن كان صحيحا نحويا إلا أنه دلاليا لا يمثل معنى صحيحا ليقابل بذلك الجملة غير الأصولية عند ***تشومسكي***. ونفس الشيء مع المستقيم القبيح والمحال الكذب وكذلك المحال،كلها جمل غير أصولية. وهذا يؤكد لنا مرة أخرى على أن ضرورة الربط بين النحو والدلالة فكرة عربية قديمة اهتم بها نحاتنا وبلاغيونا قبل أن تنادي بها النظرية التوليدية التحويلية بزمن كبير.

كما يشير ***سيبويه*** كذلك إلى دور حدس متكلم اللغة العربي الموثوق به، في قبول جملة ما أو رفضها. فإذا قبلها صارت جزءا من المدونة اللغوية ونسقا من أنساق التركيب العربي السليم مما يساهم في اتساع اللغة[٥٧]. ويقودنا هذا إلى أن حدس متكلم اللغة أو المستمع المثالي كما يقول ***تشومسكي***، يقابله في التراث العربي ما عبر عنه ***سيبويه*** "بحدس العربي الموثوق به"، والذي يمكنه تمييز استقامة الكلام أو عدمها. ويعرف ***مشال زكرياء*** عبارة ***سيبويه*** "العربي الموثوق بحدسه" بالعربي الذي ينتمي إلى محيطه اللغوي ولم تتأخر لغته بسبب الاختلاط بغير العرب ويتكلم السليقة العربية.[٥٨] هذه السليقة التي رأى فيها ***تشومسكي*** أنها تجعل الطفل يكسب اللغة من والديه وكل الأفراد المحيطين به تلقائيا دون تمارين متخصصة.[٥٩] وهذا يلتقي مع تصور ***ابن جني*** « في صدور ابن اللغة في سليقة طبيعية بمعنى أنه عفوي في تأليف الكلام و في فهمه ».[٦٠] فكل ذلك يؤكد مدى تقاطع أحدث النظريات الدلالية مع تراث علمائنا القدماء.

ومن منظور تخصصي أكثر نال النظم بعد ***سيبويه*** خطوة كبيرة من الدرس والاهتمام في مؤلفات ***الجاحظ*** ورسائله دون من سبقه من اللغويين والنقاد، فقد جعل ***الجاحظ*** النظم مدار الإعجاز في القرآن الكريم، وميز بين نظم القرآن ونظم الكلام، وتحدث عن اللفظة المفردة واشترط لها عدم تنافر الحروف وأن تكون جارية على ألسنة العرب وأن يطابق اللفظ المعنى. وقد تبعه في ذلك من ***ابن قتيبة*** **وأبو هلال العسكري، والمبرد** وغيرهم كثير .

فالبيان عند ***الجاحظ*** ومنه تشكلت خيوط فكرة النظم هو الفصاحة والوضوح وحسن الدلالة وبسط المعاني وتغيرها بتغير الدلالة، إضافة إلى التبليغ والتوصيل وإجلاء الحقيقة. يقول ***الجاحظ***:« الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم ».[٦١] وأما الشعر فيرى ***الجاحظ*** أن صياغته ضرب من التصور. فالمعنى الأصلي الذي يعبر عنه الشاعر كالمادة في يد الفنان يغير من شكلها حيث شاء، والمعاني عنده مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتغير اللفظ وسهولة المخرج.[٦٢] فالنظم عند ***الجاحظ*** إذن تأليف وسبك ولا بد له من شرطين أساسيين:[٦٣]

أ **- جودة السبك:** و هو حسن توظيف الكلام وترتيب المعاني على نسق خاص.

ب **- التصوير والصياغة:** وهو الجنس الذي يهتم بالمعاني. وهو ترصد ورصف خاص وتعقد على كلم متعالقه ومتآلفه تعاقد بعضها البعض.

ولم تبلغ مباحث الدلالة في التراث العربي بعد ***الجاحظ*** شأوا مهما إلا مع **دلائل الإعجاز**، والذي ينطلق فيه ***الجرجاني*** من البحث في إعجاز القرآن الكريم إلى صياغة نظرية شاملة للإعجاز ذات أبعاد دلالية واضحة قوامها النظم. وتحول معها ***عبد القاهر*** إلى صاحب مدرسة النظم العربية والمؤسس لها ورئيس لها بلا منازع في القرن الرابع الهجري.

لقد استطاع ***الجرجاني*** في نظريته استثمار الأصول النحوية لصالح البحث البلاغي، فعمل على توسيع النحو من خلال فنون القول « بحيث أصبح النحو وسيلة فاعلة لنقل المعنى من المتكلم أو المبدع إلى السامع أو المتلقي في العمل الإبداعي ».[٦٤] كما استهدف بيان دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ورد كل ذلك وحصره في فكرة النظم. وساعدته ثقافته النحوية والمنحى الشعري لديه في التحكم في أدق المعاني التي يحدثها تغير الحركات.

إن نظرية النظم الدلالية التي تطورت فكرتها كثيرا واكتملت وأحكمت أطرافها مع ***الجرجاني*** تعد أكبر جهد عربي تقدم لإدخال النحو العربي في حقل الدراسة الدلالية، ومن ثم أصبح المعنى في مفهوم البلاغيين يتشكل من مكونات أساسية ثلاثة؛ علم البيان ورواية الشعر وعلم النحو:[٦٥]

المكون الأول: يصل ***الجرجاني*** إلى أن البلاغة تكمن في نظم المعاني، ولذلك بنى نظريته الدلالية على فكرة مركزية مفادها« أن أحسن البيان أو البلاغة النصوص أو مزية الكلام أو فصاحته التي يشكل القرآن أفقها الأرقى، لكونه نصا إعجازيًا لا يمكن اكتناهها في ألفاظ الكلم بل في معانيها ».[٦٦] أي أن الألفاظ إذا اتسمت فيما بينها وائتلفت فذلك لأداء معنى وضعت من أجله، والكلام عن البلاغة والفصاحة لا يتم إلا من خلال وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها.[٦٧] ***فالجرجاني*** بهذا يتكئ على المعنى في تحديد مفاهيمه الدلالية، وهو ما لا يتم إلا بالتركيب والتنظيم الحسن. ويلخص هذا المستوى الأول في قضيتين متداخلتين: الأولى أن البلاغة تكمن في المعاني دون الألفاظ، والثانية أن هذه المعاني يقصد بها معاني التركيب أو نسق الكلام لا المعاني المفردة.[٦٨] وتركيز ***الجرجاني*** على هاتين القضيتين كان لتكوين نظم يربط بينهما هو مدار إعجاز القرآن.

أما ***الثاني*** يعني به المقياس الدلالي للشعرية ***عند الجرجاني***، تكون فيه مزية لفظ على آخر بدلالته بمعنى فيه على آخر، وهو المقصود بـ"معنى المعنى". ***فالجرجاني*** يميز في الكلام نوعين: كلام يؤدي الغرض مباشرة، ليكون معناه الأول هو المقصود حقيقة، وكلام لا يؤدي مباشرة بل يتحول معناه الأولي إلى دال على معنى آخر هو المعنى المقصود، فالكلام الأول دلالته بسيطة، والثاني دلالته عميقة، وهو الكلام الذي تتحقق فيه المزية شعريا وبلاغيا.[٦٩] وبهذا المفهوم يتجاوز ***الجرجاني*** كل من سبقه من نقاد وبلاغيين ولغويين، يقول في تحديده لمعنى المعنى:« فهاهنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر».[٧٠] وهذا المفهوم نفسه الذي أتى به العالمان ***ريتشاردز*** و***أوغدن*** في كتابيهما **"معنى المعنى"** واللذان أحدثا به حركة علمية كبيرة في علم الدلالة الحديث.

وفي ***المكون الثالث:*** يرتكز على قاعدة أن النظم يكمن في توخي معاني النحو وأحكامه. ويشترط فيه **الجرجاني** حسن التأليف بين الأجزاء وفقا لمعاني النحو وضوابطه. فدور النحو مهم في بناء النظم، لأنه يمكن السامع من إدراك المعنى الصحيح والعميق، وانعدامه يجعل المعنى مغلقا غامضا. ويؤكد ذلك ***الجرجاني*** بقوله:« إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ».[٧١]

وعلى هذا الأساس الثالث أقام ***الجرجاني*** نظريته في النظم، يقول:« اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ».[٧٢] فالنظم يعني توخي معاني النحو بجعل المتكلم يحدث صيغا تجري في الأذهان حتى تؤدي الكلام على النحو الذي تستخدمه الجماعة اللغوية. ويتحقق ذلك بمجموعة من العناصر عقد لها ***الجرجاني*** أبوابا في **الدلائل**، تحقق للناظم غرضه في الشعر أو النثر ومنها: التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف، الإضافة، وهي ما يمثل في نظرية ***تشومسكي*** القواعد المساعدة للتحول من مستوى البنية العميقة لمستوى البنية السطحية.

يقول ***الجرجاني*** في التقديم والتأخير:« هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ».[٧٣] فهو يساهم في نقل المعنى بطرائق مختلفة أنيقة راقية وبليغة ومن أغراضه الاختصاص والاهتمام بالمقدم، وله وجهان:

- تقديم على نية التأخير، كتقديم خبر المبتدأ: منطلق زيد.
- تقديم لا على نية التأخير، كأن « تجيء الاسمين يحتمل كل منهما أن يكون مبتدأ أو يكون الآخر خبرًا له: ضربت زيدً، وزيدًا ضربته ».[٧٤] فَزْيدٌ هنا لا يُقدم ويبقى مفعولا به كما هو في الأصل في الجملة الأولى، بل يقدم على أساس أن نرفعه ويكون الفعل خبرا له.

ويقول ***الجرجاني*** في الحذف:« هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر. فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ».[٧٥] ويطلق عليها ***تشومسكي*** أنواع التحويل وقواعده.

كما فطن ***عبد القاهر الجرجاني*** إلى أن الأبنية الصرفية والكلمات لا دور لها أو معنى ما لم يتم تعليقها ونظمها بخيط معنوي يربط هذه الكلمات المفردة ببعضها البعض، وهو ما يعرف في نظرية ***تشومسكي*** بالمكون الفونولوجي والمكون التحويلي. والتحويلي منه يبحث في العلاقات بين مكونات الجملة ويقود تدريجيا لتحديد الجملة الأصولية من عدمها من خلال قواعد اللغة التي « تكون جهاز لتوليد جميع الجمل الصحيحة ».[٧٦] وبالتالي يضع ***تشومسكي*** مثل ***الجرجاني*** الجملة أساسًا مهما يمثل وحدة اللغة الأساسية وأهم شيء يحلله اللساني.

إن مفهوم النظم عند ***الجرجاني*** ينسجم مع ما توصلت إليه النظريات اللغوية الحديثة القائمة على العامل النحوي في السيطرة على النص. وتتجسد معالم النظرية التوليدية التحويلية أكثر في التراث العربي من خلال التماثل الكبير بين نظرة ***تشومسكي*** للغة وجملها المكونة من شكلين؛ بنية سطحية وبنية عميقة، ونظرة ***الجرجاني*** لعلاقة اللغة بالفكرة من خلال المعاني الموجودة في النفس والمعاني الظاهرة، ***فعبد القاهر الجرجاني*** أدرك قبلا العلاقة بين شكلي الجمل: السطحي والباطني وأهمية الباطن على الظاهر. فإذا كان ***تشومسكي*** يرى أن الكشف عن البنية العميقة في ذهن المتكلم أمر ضروري فقد أدرك ذلك ***عبد القاهر الجرجاني*** قبله بقرون، إذ يقول:« وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني و ترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس ».[٧٧]

ويريد بالمعاني الموجودة في النفس البنية العميقة، والكلام الناتج عن نظم الكلم يعني البنية السطحية. ويؤكد ***الجرجاني*** على أهمية البنية العميقة و دورها في إعطاء التفسير الدلالي والمعنى الكلي للبنية السطحية بقوله:« لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما

يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا ». [٧٨] فاختلاف الناس في بيان حسن التراكيب و جمالها دليل على أن الفضل و المزية تكون بحسب ترتيب هذه التراكيب و الجمل في النفس.

وإن كان ***الجرجاني*** يبين في هذا الموضع أنّ التركيز الحقيقي ينبغي أنّ يتمثل في الوصول إلى البنية العميقة وأن يراعي المتكلم قواعد صحتها المتمثلة في القدرة الكاملة في أذهان أصحابها، إلاّ أنه يؤكد أهمية قدرة المتكلم على صياغة البنية السطحية وفقا لقواعد الكفاءة في البنية العميقة. فهو إذن يولي اهتماما جليا بما يطلق عليه في النظرية التوليدية التحويلية بالحدس اللغوي، الذي يعد الموجه الأول للتفسير الدلالي من حيث اتصاله بجوهر التركيب والإمكانات التفسيرية المتصلة بالصورة التجريدية.[٧٩] ويذكر ***عبد القاهر*** في هذا المقام قوله:« وأوضح من هذا كله، وهو أنّ هذا **النظم** الذي يتواضعه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكر لا محالة إذا كانت مما يستعان عليها بالفكر ويستخرج بالرؤية، فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا نتلبس أبالمعاني أو بالألفاظ؟ فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ فهو الذي تحدث فيه صنعتك وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك ».[٨٠]

لقد حسم ***عبد القاهر*** قضية ربط النحو بالدلالة وضرورة اعتماد المكون التركيبي على المكون الدلالي، تلك العلاقة التي تأخرت النظرية التوليدية التحويلية في إدراكها ومعرفة أهميتها إلى ظهور كتاب ***تشومسكي*** الثاني **"مظاهر النظرية النحوية"** والذي ظهر بعد كتابه الأول بعشر سنوات. حيث أدرك ***تشومسكي*** ضرورة إدخال المكون الدلالي باعتباره مكونا تفسيريا، من أجل إلقاء الضوء على قواعدها المألوفة، وصورها البنائية المألوفة من أمثلة التركيب المجازية على شتى أنواعها، والتراكيب الملبسة التي تجعل أكثر من مدلول واحد في بنيتها السطحية. لقد حسم عبد القاهر هذه المسألة بضرورة الربط بين النحو والدلالة، حيث نجده يثير تساؤلا يقول فيه:« فإن قيل: النظم موجود في الألفاظ على كل حال، ولا سبيل إلى أنّ يعقل الترتيب الذي تدعمه في المعاني ما لم تنظم الألفاظ ولم ترتبها على الوجه الخاص ».[٨١]

ويقدم ***عبد القاهر الجرجاني*** رأي القائلين بأهمية التركيب دون الدلالة كما يقدم رأي القائلين بأهمية الدلالة دون التركيب:« قيل أن هذا هو الذي يعيد هذه الشبهة جذعه أبدا، (جديدا) والذي يحلها، أنّ تنظر: أنتصور أنّ تكون معتبرا مفكرا في حال اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله. وإن تقول هذه اللفظة إنما صلحت لكونها على صفحة كذا، أم لا يعقل أنّ تقول "صلحت هاهنا لأن معناها كذا ولدلالتها على كذا، ولأن معنى الكلام والغرض فيه يوجب كذا ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها؟ ».[٨٢]

وهو يعلق على الرأيين، مؤكدا ضرورة الاهتمام بالأمرين معا قائلا:« فإن تصورت الأول فقل ما شئت" ، واعلم أنّ كل ما ذكرناه باطلا. وإن لم نتصور إلاّ الثاني فلا تخدعن نفسك بالأضاليل ودع النظر إلى ظواهر الأمور واعلم ما ترى، لأنه لا بد

منه من ترتب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة، من حيث أنّ الألفاظ أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها. فإذا وجب المعنى أنّ يكون أولا في النفس وجب اللفظ الدال أنّ يكون مثله أولا في النطق، فأما أنّ نتصور في الألفاظ أنّ تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وان يكون الفكر في النظم إلى ما يتواعاه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ وان تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجئ بالألفاظ على نسقها فالباطل من الظن ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إذا عرفتها عرفت أنّ حقها أنّ تنظم على وجه كذا ».[٨٣]

ولذلك يقدم ***الجرجاني*** نقده للفظين ويؤكد أن الألفاظ تبع للمعاني، يقول:« وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لأنفسهم أساسا وبنو على قاعدة: فقالوه أنه ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث». فالثالث الذي ذكره ***عبد القاهر الجرجاني*** هو العلاقة بين اللفظ والمعنى الذي يحققه النظم أو بين الرمز والصورة الذهنية، وهذا ما استقر عليه الفهم للدلالة في علم اللغة الحديث من أن الدلالة هي العلاقة بين الرمز والصورة الذهنية.[٨٤]

ثمّ يخلص ***عبد القاهر*** من ذلك بأنه:« لا يتصور أنّ تعرف للفظ موضعا من غير أنّ تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي الألفاظ ترتيبا ونظما، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ، وقفوت بها أثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أنّ يستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها ترتيب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق ».[٨٥]

ونستطيع في الأخير أنّ نقرر[٨٦] بأن علماء العربية قد أولوا الجانب الدلالي الأهمية التي أولوها للتركيب النحوي. وأن كليهما في الميزان راجحان ولا ينبغي أنّ ننسب الواحد منهما فضلا أو تمييزا على الآخر، فهما يتضافران من أجل الوصول إلى التركيب البنيوي البليغ. ومن ثمّ فإن إدراك علماء العربية لأهمية الجانب الدلالي لم يكن إدراكا بأهمية التفسيرية باعتبارها مكونا تفسيريا فحسب كما يذكر ذلك ***تشومسكي*** بل إدراك بأهميته باعتباره ندًا مماثلا للتركيب النحوي، يقول ***الجرجاني*** في دلائله « واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذا السبب من تلك ».[٨٧]

الخاتمة

نستنتج في نهاية هذا البحث النتائج التالية:

- إن الدلالة النحوية هي البحث عن الدور الوظيفي للوحدات اللغوية داخل التراكيب. فالبينة اللغوية لها معانيها، ذلك أن غاية المتكلم من إنشاء العلاقات بين المفردات هي أن يحول الملفوظ من مفردات متعاقبة إلى كلام مفيد. ومعاني البنية اللغوية

هي ما يسميه عبد القاهر الجرجاني " معاني النحو" وهي المعاني التي تستفاد من ترتيب الكلام واختيار أقسامه.

- الدلالة النحوية هي الدلالة المرتبطة بمواقع الكلمات أي ترتيبها وكذلك الحركات أو العلامات التي تحملها هذه المفردات داخل التركيب لنميز بين الفاعل والمفعول به من خلال علامتي النصب والرفع، وإن تعذر ذلك نراعي الترتيب لاستخلاص المعنى. والمعنى الوظيفي بصوره الثلاث المتقدمة "صوتية، صرفية، نحوية" هي معنى الجملة التحليلي الذي يخضع للضبط والتقعيد. فالأصوات تخضع لتقعيد سلوكها إدغاما وإخفاء و إقلابا ... إلخ، والعناصر الصرفية تخضع لقواعد الصرف كما تخضع العناصر النحوية لقواعد النحو. وهذا الاستنتاج يتفق عليه كل من إبراهيم أنيس و تمام حسان.

- إن الدلالة النحوية بجوانبها المختلفة كتعريف وتقسيم لها وكل ما يتعلق بها لقيت اهتمام الباحثين خاصة القدامى من النحويين العرب، لأنهم اهتموا بالنحو والإعراب لفهم القرآن الكريم وتبيان معانيه ودلالاته الجزئية (الألفاظ) والعامة (المعاني للجمل). لأن المعاني العامة مرتبطة بالألفاظ والدلالة النحوية تتجاوز المفردات المعجمية.

الهوامش والإحالات:

[1]- انظر عبد السلام السيد حامد، **الشكل والدلالة دراسة نحوية للفظ والمعنى**، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ٢٠٠٢، ص ٦٠.

مهدي أسعد غرار، **جدل اللفظ والمعنى دراسة في دلالة الكلمة العربية**، عمان، دار وائل، د ط، ص ٢٧. [2] -

- المرجع نفسه. [3]

- أحمد سليمان ياقوت، **أبحاث في اللغة**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، ١٩٩٤. ص٣٥. [4]

- محمد محمد داوود، **العربية وعلم اللغة الحديث**، دار غريب، القاهرة، د ط، ٢٠٠١، ص١٨٤. [5]

[6]- انظر: عبد الواحد حسن الشيخ، **العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي**، مكتبة الاشعاع، مصر، ط ١، ١٩٩٩، ص٩.

- انظر: محمود فهمي حجازي، **مدخل إلى علم اللغة**، القاهرة: دار قباء للنشر والتوزيع، ص ١٥٥- ١٥٦. [7]

[٨]- **علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصيلية نقدية**، عالم الكتب، القاهرة ، ط ٥، ١٩٩٨. ص ٢١.
- انظر **علم الدلالة**، ص ١٣. [٩]
[١٠] - المرجع نفسه.
- عبد السلام السيد حامد، **الشكل والدلالة دراسة نحوية للفظ والمعنى**، ص ٦٦ - ٦٧. [١١]
[١٢]- **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للنشر والتوزيع، بيروت، د ط، بلا تاريخ، ج ١ ص ٣٦.
- **الشكل والدلالة دراسة نحوية للفظ والمعنى**، ص ٢٩. [١٣]
[١٤]- **علم الدلالة بين النظرية والتطبيق**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، دط، ٢٠٠١، ص ٩٩.
- المرجع نفسه. [١٥]
- المرجع نفسه ، ص ١٠٠. [١٦]
- المرجع نفسه، نقلا عن دلائل الإعجاز، ص ٢٣. [١٧]
- البقرة: ٢٣٣. [١٨]
[١٩]- عبد القادر عبد الجليل، **علم اللسانيات الحديثة**، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٥٢٨ - ٥٢٩.
[٢٠]- المرجع نفسه، ص ٥٢٩-٥٣٠.
[٢١]- انظر: نور الهدى لوشن، **مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، المكتبة الجامعية، الاسكندرية، د ط، ٢٠٠١، ص ١٥٤.
- **علم الدلالة بين النظرية والتطبيق**، ص ٨٣. [٢٢]
[٢٣]-المرجع نفسه.
- أحمد سليمان ياقوت، **أبحاث في اللغة**. ص ٣٥. [٢٤]
- المرجع نفسه. [٢٥]
- أحمد نعيم الكراعين، **علم الدلالة بين النظر والتطبيق**، ص ٩٩. [٢٦]
- المرجع نفسه. [٢٧]
- المرجع نفسه. [٢٨]
- المرجع نفسه. [٢٩]
- المرجع نفسه. [٣٠]
- ابراهيم أنيس، **دلالة الألفاظ**، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر دط، ١٩٧٦، ص ٤٨. [٣١]
- البقرة: ١٣٢. [٣٢]

- قطبي الطاهر، **بحوث في اللغة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٠ م، ص ١٩.[٣٣]
- المرجع نفسه.[٣٤]
- المرجع نفسه.[٣٥]
[٣٦]- تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط ٣، ١٩٩٨، ص ٢٠٥.
- عبد السلام السيد حامد، **الشكل والدلالة دراسة نحوية للفظ والمعنى**، ص ٦١.[٣٧]
- انظر قطبي الطاهر، **بحوث في اللغة**، ص ١٩- ٢٠.[٣٨]
- انظر: عبد السلام السيد حامد، **الشكل والدلالة**، ص ٦٢.[٣٩]
- أحمد محمد قدور، **مبادئ اللسانيات العامة**، دار الفكر، بيروتن دمشق، ط١، ١٩٩٦، ص ٢٣٢.[٤٠]
- فاطر: ٢٨.[٤١]
- البقرة: ١٢٤.[٤٢]
- انظر: قطبي الطاهر .**بحوث في اللغة**، ص ٢١.[٤٣]
- مهدي أسعد غرار، **جدل اللفظ والمعنى**، ص ٢٧.[٤٤]
[٤٥]- سالم شاكر، **مدخل إلى علم الدلالة**، ترجمة محمد يحياتين، منشورات مخبر الممارسة اللغوية في الجزائر، ص ٤.
- انظر: مهدي أسعد غرار، **جدل اللفظ والمعنى**، ص ٢٧.[٤٦]
- الصفحة ٤٨.[٤٧]
- المرجع نفسه.[٤٨]
- تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، ص ٢٠٨.[٤٩]
- المرجع نفسه، ص ٢٠٨.[٥٠]
- المرجع نفسه.[٥١]
- المرجع نفسه، ص ٢٠٩.[٥٢]
[٥٣] - ويسمى الجمع والضم والنظام والربط والتأليف، والذي يرادفه ضم الكلمات المتغيرة على الوجه الذي يقتضيه المنطق، وهو التأليف ونظمه ينظمه ونظاما ونظما ونظمه فانتظم. (انظر: ابن منظور، **لسان العرب**ن دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤، مادة: ن ظ م).
[٥٤] - سيبويه، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ج١ ص ٢٥- ٢٦.
[٥٥] - المرجع نفسه، ص ٢١١.

[٥٦]- ميشال زكرياء، **بحوث ألسنة عربية**، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت. ط:١. ١٤١٢هـ - ١٩٩٩م. ص ٤٤.
[٥٧]- المرجع نفسه. ص٤١.
[٥٨]- المرجع نفسه. ص٤٢.
[٥٩]- انظر حليمة أحمد عمايرة، **الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة**، دار وائل، عمان، ط ١، ٢٠٠٦. ص ٢٠٦.
[٦٠]- المرجع نفسه.
[٦١] - **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د ط، ج ١ ص٧٦.
[٦٢] – المرجع نفسه.ج ١ص ٦٧.
[٦٣] – **الحيوان**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٦٩، ج٣ ص١٣١-١٣٢.
[٦٤]- محمود درابسة، **التلقي والإبداع قراءة في النقد العربي القديم**، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، الأردن، د ط، ٢٠٠٣م، ص١٠١.
[٦٥]- انظر سامي سويدان، **في دلالية القصص وشعرية السرد، دار الآداب**، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٥.
[٦٦]- المرجع نفسه، ص ٤٦.
[٦٧]- المرجع نفسه.
[٦٨]- المرجع نفسه، ص ٤٨.
[٦٩]- المرجع نفسه، ص ٥٨.
[٧٠]- محمود درابسة، **التلقي والإبداع قراءة في النقد العربي القديم**، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، الأردن، د ط، ٢٠٠١، ص ٩٦.
[٧١]- سامي سويدان، **في دلالية القصص وشعرية السرد**، ص٥٨.

ولا نغفل في هذا المقام ما قام به ***السكاكي*** (ت٦٢٦هـ) من علماء القرن السابع في "مفتاح العلوم" الذي يعد بابا لكثير من مباحث هذه النظرية، ويجعله عدد من الباحثين تهذيبا وتحسينا لعمل ***الجرجاني***. و***السكاكي*** يميز في الدلالة بين مكونات ثلاثةٍ. ***الأولى*** علم النحو وقواعده وأصوله باعتباره شرطا ضروريا لعلم الدلالة، ***الثانية*** علم الاستدلال لكونه من عناصر الدلالة. وهو مكمل لعلم المعنى ***المكون الثالث*** علم الصرف و يدرجه ***السكاكي*** في العملية الدلالية، فيجعله وعلم النحو يوطئان المعاني؛ وذلك لأن خواص تراكيب الكلام من اختصاص علم المعاني، وهي موقوفة على التعرض لهذه التراكيب، وهذا من مهمة علم النحو، وهذه التراكيب تتألف من المفردات هي من اختصاص علم الصرف. (انظر سامي السويدان، **في دلالية القص وشعرية السرد**، ص ٧٥- ٧٨).

[٧٢] - **دلائل الإعجاز**، ص١٢.
[٧٣] - المرجع نفسه، ص ٩٤.
[٧٤] - صالح بلعيد، **نظرية النظم**، دار هومة، الجزائر. ط: بلا. ٢٠٠٢م. ص ١٣٦.
[٧٥] - **دلائل الإعجاز**، ص ١٢٠.
[٧٦] - حليمة احمد عمايرة، **الاتجاهات النحوية لدى القدماء**. ص ٢١١.
[٧٧] - **دلائل الإعجاز**، ص٥٤.
[٧٨] - المرجع نفسه، ص٥٥.
[٧٩] - حسام البهنساوي، **أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث في مجالي مفهوم اللغة والدراسات النحوية**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ط: بلا. ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م. ص ٢ ،٧.
[٨٠] - **دلائل الإعجاز**، ص ٥١.
[٨١] - المرجع نفسه، ص ٥١.
[٨٢] - المرجع نفسه، ص ٥٢.
[٨٣] - المرجع نفسه، ص ٥٢- ٥٣.
[٨٤] - المرجع نفسه، ص٨٤.
[٨٥] - المرجع نفسه، ص ٥١.
[٨٦] - انظر حسام البهنساوي، **أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات الابحث اللغوي الحديث**. ص ٢ -٧.
[٨٧] - **دلائل الإعجاز**، ص ٥٥.